مصطفى صادق الرافعى

بمناسبة مرور سنة على وفاته

للأستاذ فليكس فارس

نقلة ما نشر فى العدد الماضى

لكل كاتب منهجه، ولكل مفكر تقديره . وما أذهب إليه فى تحديد الرافعى هو ما تيقنته فيه قبل أن تنشأ بيننا أية علاقة شخصية ، إذ رأيت فيه الأديب المطبوع المتمرد على كل مشايعة وتقليد . فهو مثال جديد للأدب العربى القديم يستلهم أجواء الشرق ويُلبس تفكيره حلة من لغة الجنان لايسع كاتباً من عباقرة سائر الأمم أن ينسج على منوالها

الرافعى هو أحد أعلام العرب المعدودين ، أحد الأئمة السائرين فى الطليعة من قيالق الأدباء فى عصر النهضة الجديدة . ولا يجوز لأى كاتب منصف أن يصوره للتاريخ متخلفاً خطوة واحدة عن رفاق جهاده . فمن الجناية على الحق أن نقيم فى وهمنا حلبة نستركض عليها عباقرتنا ونتسلى بالنظر إليهم كأنهم جياد السباق يتجهون إلى أمد واحد . فليس الأدب حلبة اختط المراهنون عليها طريقاً واحداً لتغلب فريق على فريق ؛ إن الادب إلا أجواء تتطاير فيها القرائح فراشات تستهويها أنوار وأنوار ... ولكل نور جذبته، ولكل نور جماله ، إذا هو اقتاد المنجذب إليه نحو الحق والخير . وما أدري أن بين كتابنا وشعرائنا أمواتاً وأحياء من يبز مصطفى فى إيمانه ووطنيته وقوميته وإشراق بيانه ومتانة أسلوبه ولطافة شعوره وعمق تفكيره

هذه قطعة (رؤيا فى السماء) إن وجدت لها مثيلا من حيث الفن بين ما كتب أشهر الرمزيين من أبناء الغرب ، فانك لن تجد ما يشبه روعة بيانها ولا إشراق إلهامها وقد تلألأت في سطورها من الأحاديث الشريفة ، ومن حكم السلف الصالح ما يدفع بك وأنت تتلوها إلى السجود كأنك تصلى بأصوات القبور المتعالية من خفايا فطرتك وأعماق روحك

اسمع صرخة الإلهام فى روح الرافعى تخرج من فم ملاك يؤنب رجلا فضل العزوبة على الزواج ووقف فى البرزخ الفاصل بين العالمين متخذاً من تنسكه وتعبده زلفى إلى الحق

قال الملاك : (جئتَ من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ، فما صنعتَ للحياة نفسها إلا أن هربت فيها وانهزمت من ملاقاتها؛ ثم أنت تؤمل جائزة النصر على هزيمة .. عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك ، ولكنها عقمت فلم تعمل بك . لك ألف ألف ركعة ومثلها سجدات من النوافل ، وتخير منها كلها أن تكون قد خرجتْ من صلبك أعضاء تركع وتسجد)

أسمعت كيف يعتز الرافعى عن أيمانه فيدعوك إلى الإيمان ؟ فاسمع الآن كيف يهيب بالشباب إلى إقامة الوطن المنشود !

(يا شباب العرب ، لم يكن العسير يسر على أسلافكم الأولين كأن فى يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها . أتريدون معرفة السر ؟ السر أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق فصاروا عملاً من أعمال الخالق . غلبوا على الدنيا لما غلبوا فى أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضى . وعلمهم الدين كيف يعيشون باللذات السماوية التى وضعت فى كل قلب عظمته وكبرياءه القوة القوة يا شباب العرب ! القوة التى تقتل أول ما تقتل فكرة الترف والتخنث . اجعلوا رسالتكم إما أن يحيا الشرق عزيزاً وإما أن تموتوا)

أسمعت كيف يلهب الرافعى النفوس شوقاً إلى العظمة التى تكشف لك فى آن واحد عظمة الحياة الدنيا ومجد الحياة الخالدة ؟ فاسمع الآن كيف يصور لك الرافعى سعداً بأسطر وهو من يكاد ينوء التاريخ بإحصاء صفاته

« إن سعدا العظيم كان رجلا ما نظر إليه وطنى إلا بعين فيها دلائل أحلامها ، كأنما هو شخص فكرة لا شخص إنسان . فاذا أنت رأيته كان فى فكرك قبل أن يكون فى نظرك، فأنت تشهده بنظرين أحدهما الذى تبصر به والآخر ذاك الذى تؤمن به . رجل الشعب الذى يحس كل مصرى أنه يملك فيه ملكا من المجد. وقد بلغ فى بعض مواقفه مبلغ الشريعة فاستطاع أن يقول للناس: ضعوا هذا المعنى فى الحياة وانزعوا هذا المعنى من الحياة)

أسمعت الرافعى فى مجال العقيدة الروحية والوطنية ؟ فاسمعه الآن كيف يسبر غور معضلة الانتحار بقوله :

(وليس يخيب الانسان إلا خيبة عقل أو إرادة ؛ وإلا فالفقر

والحاجة والمرض والاختلال والذل والبؤس والعجز عن الشهوة وفساد التخيل ، كل ذلك موجود في الناس يحمله أهله راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسي لهذه الأرض على نفوس أهلها ويا عجبا ... إن العميان هم بالطبيعة أكثر الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخرية، أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك..)

هذه عبارة من بحث طويل في الانتحار قد لا تجد ما يضاهيه من أبحاث الغرب تحليلاً وتصويراً واستنتاجاً

هـذا هو الرافعي الفيلسوف ، فاسمع الآن إلى قلب الرافعي يتدفق حناناً ورقة وهو يصف طفلاً ماتت أمه :

(وطفت عليـه الدموع ، فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة ، ولـكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يتمها . ونهض الصغير ولم ينطق بذات شفة ، نهض يحمل رجولته التي بدأت منذ الساعة)

(انتهت ، أيها الطفل المسكين، أيامك من الأم ، هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمس الذي مضى إذ يأتي الغد ومعك أمك. وبدأت ، أيها الطفل المسكين أيامك من الزمن وسيأتي كل غد محجباً مرهوباً إذ يأتي لك وحدك ، ويأتي وأنت وحدك)

وهذه عبارة من مقال (عروس تزف إلى قبرها)

(ودخلت أعودها فرأت كأنني آت من الدنيا ، وتنسمت مني هواء الحياة كأنني حديقة لا شخص . ومن غير المريض المشفي على الموت يعيش بقلوب الناس لا بقلبه)

إلى أن قال :

(وباقتراب الحبيب المحتضر من المجهول يصبح من يحبه في مجهول آخر فتختلط عليه الحياة بالموت ، ويعود في مثل حيرة المجنون حين يمسك بيده الظل المتحرك ليمنعه أن يذهب، وتمر به في ساعة واحدة كآبة عمر كامل تهيء له جلال الحس الذي يشهد به جلال الموت ...)

وهذا أيضاً مقطع من (لحوم البحر)

(الفتاة ترى في الرجال المريانين أشباح أحلامها ، وهذا معنى السقوط، والمرأة تسارقهم النظر تنويماً لرجلها الواحد، وهذا معنى المواخير ...

(أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين؟

يا لحوم البحر ، سلخك من ثيابك جزار ...

(والبحر يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر

لو درى هؤلاء وهؤلاء مرة اغتسالهم معاً في البحر لاغتسلوا من البحر، فقطرة الماء التي تجسها الشهوات قد انسكبت في دمائهم وذرة الرمل النجسة في الشاطىء ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم .

(يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار ...)

هذه نماذج تلمح الرافعي من خلالها لمحاً ، تضمنها هذا المقال لتشهد هي له بأنه الكاتب المطبوع على سجية نفسه، والمفكر المبتكر للمعاني من حياة الشرق نفسها ، لا مما صوّره عباقرة الغرب من حياتهم في تأليفهم . وإذا أنت أردت أن تعرف الرافعي وتحيط بآفاق تفكيره وشعوره فإنك لتجد فيما كتب ما يستطير لبك ويشغل ذهنك حولاً كاملا . ولـكن يكفيك لتخشع أمام الرافعي وتعلم في أي مقام يضعه بيانه من الأدب العالي ، أن تقلب مصنفاته ساعة فترى كأن أناملك تفتح لك من كامنات نفسك ما كنت تحس به غماماً فإذا هو الفلك الخفي يدور أمامك بكواكبه ويبهرك بأنواره ...

إن كتابنا البارزين ممن أجادوا لغات الغرب ووعوا تواريخها لا يسعهم ، إذا نحن استثنينا النذر اليسير من المجددين بينهم ، أن يلبسوا تفكيرهم وشعورهم بياناً عربياً دون أن تطفر من هـذا البيان صور وانطباعات تنقل إليك رواشم أصلها . فان في أدبنا اليوم ارتشاحات فرنسية وانكليزية وألمانية وروسـية الخ ... ولـكم من قطعة أدبية لولا ثقتك بعبقرية كاتبها لحسبتها مترجمة عن اللغة الأجنبية التي يجيدها لا مستلهمة من أجواء بلاده وأدب قومه . ولـكم من رواية يكفيك أن تبدل الأسماء العربية فيهـا بأسماء إفرنجية ليصح أن يدعى تأليفها إلى كاتب أجنبي يصـور أخلاق الغرب ونظمه وعاداته

إذا كان التفكير العلمى المحض مشاعاً بين الأمم ولا قبل لك بالتمييز بين اكتشاف وفق إليه جرمانى ، واكتشاف آخر يظفر به لاتينى أو عربى ، فليس الحال كذلك فى الأدب ، لأنه خطرات أفكار ، وسانحات شعور ، تخرج من صميم الفطرة وتتخذ حتما الصور والألوان الخاصة بلغة كل شعب وتقاليده وأخلاقه ، فليس هنالك أدب عالى كما أنه ليس هنالك فن عالى وموسيقى عالية بما تدل عليه هذه الكلمة من الاطلاق . غير أن هنالك آداباً وفنوناً وموسيقى تبلغ الذروة من الإبداع ، فإذا نقلت إلى أمة غريبة عن منشئها احتفظت بالقدر الكافى من الجمال لتؤثر فى نفوس الأمة الغريبة

إن بين آثار كتابنا فى هذا الزمان قطعاً فنية تتدفق روعة وجمالاً ، ولكنك لاتجد إلا اليسير منها مايمكنك أن تنقله إلى لغة أجنبية دون أن يقول لك أهلها إنهم قرءوا مثلها فى مؤلفات كتابهم ...

لكأن العناية قد أرادت بعث الأدب العربى صافياً ليجمع ما انفرط من شمل هذه الأمم التى تناهبت الأذواق العربية بيانها ، فأرسلت من اختارت فى مطلع نهضتنا يبعثون لغة الجنان بعد طول هجوعها ، يبعثونها ملهمة من الوحى ومما أبدعه استغراق المتقدمين حين كان شعورهم تسبيحاً وتفكيرهم صلاة وسجوداً . يبعثونها لا يكدر نهرها التدفق ينبوع دخيل ، ولا تشوه أساليبها عجمة ، ولايحتل إعجازها بإيجازها وإحكامها ، ما لا قبل لها به من الأساليب الغريبة . لكأن العناية أرادت أن تفتح آذان الجيل الناشئ إلى أصوات الأجيال المتوارية ، فاختارت لها رسلها وفى طليعتهم الرافعى ، أنشأته فى بيئة خاصة ، وقضت له بألا يجول إلا فى دوائر الأدب العربى ، وبلته بالصمم كيلا يسمع صوتاً إلا صوت نفسه تتجاوب أصداء العروبة فيها من جميع حقبها وأطوارها ، ليصرخ صرخته المدوية كأنها هتفة بوق النشور فى هذه الشعوب التى أضاعت استقلال تفكيرها ، فتناهب بيانها الغريب من كل بيان حتى فقدت ثقتها بنفسها فقضت على ميزانها وعزة حياتها

قبلكى فارس

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــكولن

هدية الأهرام الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١١ —

يا شـباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نفسها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

والحق أن مسألة العبيد تزداد تعقيداً كلما تقدمت الأيام ؛ ولكن ابراهام لم يكن الرجل الذى يضل السبيل إذا تعقدت من حوله مسالكها . رأى بنافذ بصيرته أن السماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل معناه سيادة أهل الجنوب وبقاء نظام العبيد إلى أمد بعيد ؛ ورأى كذلك أن الدعوة إلى التحرير تؤدى لا محالة إذا اشتدت إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فينهار البناء ، وتعصف بالوحدة القومية الأنواء . إذا فليتنظر وليحذر وليترقب ما تأتى به الأيام ...

انصرف دوجلاس ولكنه قبل أن ينصرف أبى إلا أن يأتى ما يدل على طبعه ، فلقد نقض العهد وأتى بعد يومين خطاباً جديداً حاول فيه أن يدافع عن آرائه ، ولم يستطع لنكولن إلا أن يظل عند كلمته ، فأبى أن يتكلم وقد جعل بينه وبين خصمه ميثاقاً أن يقطعا حبل الجدل

ولقد كان لانتصار لنكولن على دوجلاس العظيم ذلك السياسى الملحوظ المكانة أثر بعيد فى حياة ابن الغابة قاطع الأخشاب بالأمس وعامل البريد ، وفتى الحانوت البائس الفقير ؛ ذلك أنه ازداد ثقة بنفسه فأخذ يشتد طموحه ويمتد بصره ؛ وازدادت كذلك ثقة الناس فيه واشتد إعجابهم به واطمئنانهم إلى مقدرته وجدارته

ولذلك نراه يخطو خطوة جديدة فى مضمار السياسة فيطمع أن ينتخب عضواً لمجلس الشيوخ ويأمل بذلك أن يعود إلى وشنجطون . وهل كان يرى نفسه دون دوجلاس مقدرة ومكانة